أثر سورتي الكهف والبقرة في شعر أبي نواس

أ. عليوة محمد ♥

جامعة الجزائر 2

تاريخ الإرسال: 25-05-2018 تاريخ القبول: 08-07-2018

الفكر النّقدي العربيّ القديم حافل بالنّظريات والإجراءات التّطبيقيّة الّتي تعتبر أصلا من أصول النّظريات النّقديّة الغربيّة الّتي تثير إعجابنا لما اكتسته من ثوب حداثي ترجع أصولها في حقيقة الأمر إلى تراثنا النّقدي، وقد لا يكمن الاختلاف سوى في المصطلح أو المناهج.

وحسب ما يذهب إليه عبد الملك مرتاض فإنّ مصطلح "التّناص" مرادف لمصطلح "السّرقات" المتداول منذ القديم لدى العرب ولكن بمفهوم إيجابي بعيدا عن ما كانت تحمله من معاني سلبيّة، ولم يكن مرتاض وحده من خلص إلى توافق المصطلحين حينما ربط بين التّناص بمفهومه الحديث وقضيّة السّرقات التراثيّة، بل أيّده في ذلك كثير من النّقاد لعلّ أبرزهم محمد عبد المطّلب وربى عبد القادر بالإضافة إلى الغدامي وصبري حافظ.

والرّابط الأساسي الجامع بين المصطلحين أنّه لا يمكن فهم النّص إلّا من خلال تحديد علاقته مع نصوص أخرى، ومثال ذلك قول سراج الدين الوراق:

يَا لَائِمِي فِي هَوَاهَا أَفْرَطْتَ فِي اللَّوْمِ جَهْلًا

لا يَعْلَمُ الشَّوْقَ إِلا ولا الصَّبَابَةَ إِلّا

فالقارئ لهذا البيت قد يتشعب فكره في مناحٍ شتّى، لا يدرك المراد منه إلا إذا كان على علم بقول الشاعر القديم:[1]

♥ **mzjhonsmith@gmail.com**

لَا يَعْلَمُ الشَّوْقَ إِلَّا مَنْ يُكَابِدُهُ وَلَا الصَّبَابَةَ إِلَّا مَنْ يُعَانِيهَا

ويتضّح من خلال هذا المثال أنّ فكرة "حفظ النّصوص ونسيانها" الّتي جاء بها ابن خلدون وابن طباطبا هي أحد أعمدة التّناص، ونظريّات القراءة الحديثة، وكذا ما يعرف لدينا بطريقة حفظ النّصوص الجيّدة من مُتُون والقرآن والحديث والأشعار و... ممّا نستعين به في تعليم أبنائنا وإكسابهم ملكة لغويّة والعمل على جعل أدمغتهم أكثر انفتاحا على مختلف العلوم واللّغات.

فالمستوى المعرفي الثقافي للمتلقي يلعب دورا هاما في الكشف عن النّص الغائب الذي يتفاعل معه النص الحاضر محل الدراسة باعتبار القارئ قطبًا هامًا وعنصرًا أساسيا ينكشف به التناص، لأن النص الغائب قد يكون نصا قرآنيا أوحديثا نبويا شريفا أوقطعة أدبية نثرية كخطاب أومقال أومثل أوحكمة أوقول مأثور لأحد العلماء أوالحكماء أونصا شعريًا... بالإضافة إلى ضرورة إدراك السياق فذلك يعد شرطا أساسيا للقراءة السليمة التي يظهر من خلالها التناص للقارئ، وذلك لأن للّنص سياقات متعددة يمكن أن تكون ذات رابط اجتماعي أوسياسي أوتاريخي أسطوري أوحضاري أو...

فالمقصود بالمتلقي في هذا الإطار ذلك القارئ الذي يمتلك ذائقة جمالية ومرجعية ثقافية واسعة تؤهله لدخول عالم التناص فتصبح قراءته للنصوص إعادة كتابة عن طريق الفهم والتأويل فيكون بذلك عنصرا حاسما في رفع النّقاب عن التناص في حالة غياب المرجعية النّصية.

وقد قسم البلاغيون المعاصرون التناص إلى تضمين واقتباس وهما مصطلحان معروفان في الدرس البلاغي العربي منذ القديم، إلا أنهما عرفا تطورا كغيرهما من المصطلحات النقدية.

فالاقتباس يعني بصورة مختصرة أخذ الشاعر أوالناثر نصا من القرآن الكريم أو الحديث الشريف ليوضع في شعر الشاعر أو نثر الناثر، ومن البلاغيين والنقاد

من جعل الاقتباس يشمل الأخذ من بعض العلوم والمعارف الأخرى، كالنحو والصرف والفقه والعروض، وغير ذلك. أما التضمين فيعني أخذ الشاعر بيتًا أوجزءًا من بيت شعري من شاعر آخر فيودعه في شعره، على أن يكون ذلك علنا من دون أن يخفي ذلك، وإلّا فالأمر يعد سرقة أدبية.

(فنجد عبد الهادي الفكيكي في كتابه " الاقتباس من القرآن الكريم في الشعر العربي " يربط الحديث عن الاقتباس بالحديث عن أثر القرآن الكريم في اللغة العربية وآدابها.)[2] وقد تطرق من خلال كتابه إلى الأغراض الشعرية التي مسها الاقتباس مقدما نماذج في الزهد والوعظ، المدائح النبوية، المدح والهجاء، الفخر الاستعطاف الرثاء، الغزل والعتاب.

(والاقتباس لغة: طلب القبس، والقَبَس بفتح الباء شعلة من نار تؤخذ منها أومن معظمها، فاقتبس النار أي أخذها)[3]، وبهذا المعنى جاء في سورة طه على لسان موسى عليه السلام (إني آنست نارا لعلي آتيكم منها بقبس)[4]، (كذا ما روي عن عائشة بنت سعد بن أبي وقاص، وكانت عائشة قد بعثت خادمها "فند" ليقتبس لها نارا، فتوجه إلى مصر وأقام بها سنة ثم جاءها بنار وهو يعدو فعثر فتبدد الجمر فقال: تعست العجلة، فردت عليه قائلة:

بَعَثْتُكَ قابِسًا فلَبِثْتَ حَوْلًا متى يَأتي غَوَاثُكَ مَن تُغِيثُ

ويستعار لفظ الاقتباس لطلب العلم والأدب فتقول: اقتبست منه علما وأدبا أي أخذت واستفدت)[5]. (واقتبست منه علما أيضا، أي استفدته، قال الكسائي اقتبست منه علمًا ونارًا سواء)[6] وقد ورد الاقتباس بمعنى الاستعارة والاستفادة وطلب الهداية في حديث: ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (من اقتبس علما من النجوم اقتبس شعبة من السحر زاد ما زاد)[7]، ومنه قوله تعالى في سورة الحديد (انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نورِكُمْ)[8]

أما اصطلاحًا، فالاقتباس عند البلاغيين: (أن يُضَمَّنَ الكلام شيئا من القرآن أو الحديث، لا على أنه منه، والكلام هنا يشمل المنظوم والمنثور)[9] ومنهم من قصر الاقتباس على القرآن لا غير، فقيل: (الاقتباس أن يضمِّن المتكلم كلامه كلمة من آية أوسورة من كتاب الله)[10] ومنهم من لم يكتفِ بذلك، فزاد على القرآن والحديث الاقتباس من مسائل الفقه والعلوم الأخرى، كالنحو والعروض والمنطق وغيرها.

(وتجدر الإشارة إلى أن على المقتبس من كلام الله عزّ وجل أوالحديث أن لا ينبّه على ذلك)[11] أي أن لا يقول في كلامه المنظوم أوالمنثور " قال تعالى" أو" قال رسول الله " أو ما يشبه ذلك من العبارات . (ومن البلاغيين من وضع الاقتباس في مكانة مرموقة في الصناعة البلاغية، ليس فوقه من الكلام ما هو أعلى درجة منه لأنه ممزوج بالقرآن لا على وجه التضمين بل على وجه الانتظام به)[12]

والاقتباس من القرآن على ثلاثة أقسام: مقبول ومباح ومردود، **فالأول** :ما كان في الخطب والمواعظ ونحو ذلك، **والثاني** :ما كان في العهود ومدح النبي والغزل والرسائل والقصص، **والثالث** :على ضربين: أحدهما ما نسبه الله تعالى إلى نفسه ونعوذ بالله ممن ينقله إلى نفسه، كما قيل عن أحد بني مروان إنه وقّع على مطالعة فيها شكاية من عمّاله :فقال: " إنّ إلينا إيابهم ثم إن علينا حسابهم " اقتباسا من الآيتين 25– 26من سورة الغاشية والآخر تضمين آية كريمة في معرض هزل ونعوذ بالله من ذلك، كقول القائل:

أَوْحَى إلى عُشّاقِهِ طَرَفُه هيهات هيهات لما توعَدُون[13]

اقتباسا من الآية36 من سورة المؤمنون.

(ومن المسائل التي يجب تثبيتها في موضوع الاقتباس أن الشعراء والخطباء والكتاب عندما يأتون بنصوص من القرآن أوالحديث الشريف لا يأتون بها على كونها نفس المقتبس منه، ولولا ذلك للزمهم الكفر فيلفظ القرآن والنقص منه

ولكنهم يأتون به استحسانا للفظ القرآن ولوقعه وتأثيره في النفوس.)[14]

وأمثلة الاقتباس من القرآن في باب الشعر كثيرة لا حصر لها، ولم يقتصر الاقتباس من القرآن الكريم على الشعر فحسب فقد شمل النثر أيضًا، إلا أنه يعزّ على الباحث أن يجد أمثلة كثيرة للاقتباس من الحديث النبوي الشريف في الشعر إذ لم أعثر على نماذج كثيرة لهذا الاقتباس كما كان الأمر مع الاقتباس من القرآن الكريم وربما يرجع ذلك إلى كثرة تداول النصوص القرآنية وحضورها في الذهن أكثر من نصوص الحديث الشريف وكذا الشكوك التي تلتف حول بعض النصوص المنسوبة إلى النبي صلى الله عليه وسلم فتضعفها أوتنكر نسبتها إليه مما يجعل الاقتباس ضعيفا وذا قيمة فنية متدنية.

الاقتباس الحرفي والإيحائي: وبعيدا عن النظريات والتعاريف المختلفة، فقد ارتأيت التركيز من خلال هذا البحث المتواضع على نوعين أساسيين من الاقتباس يتمثل أولهما في الاقتباس الحرفي اللفظي أما النوع الثاني فهو الاقتباس الإيحائي باعتباره أحد ظواهر التفاعل النصي.

والمقصود بالاقتباس الحرفي أو اللفظي أن يضمّن الشاعر شعره شيئا من كلام الله تعالى حرفيا دون تحوير أو تغيير في اللفظ، ويعد هذا النوع أدنى مستويات التناص كونه يفتقد إلى عنصر الإيحاء وعنصر المفاجأة لدى القارئ ويجعل النص أكثر توقعا لديه (لأن قيمة كل ظاهرة أسلوبية تتناسب مع حدة المفاجأة التي تحدثها تناسبا طرديا بحيث كلما كانت الخاصية غير منتظرة كان وقعها على نفس القارئ أعمق)[15]

(أمّا الإيحائي فهو أعمق من الحرفي إذ يتجلى بالتشرب والذوبان الكلي الذي لا يظهر منه إلا الإشارة أو التلميح والإيماء دون التصريح باعتماد المعنى دون اللفظ على خلاف المستوى السابق، ويكون بالاستفادة من الآيات والمعاني القرآنية والقصص القرآني إلى المعاني المراد تبليغها، وتوظيفها بحيث تكون منصهرة في

النص الشعري المنشأ ولا تظهر منها سوى إشارات تحيل عليها، ويتوقف تحديد هذا النوع على ثقافة القارئ أي أنه يتطلب قارئا نموذجيا. وبذلك يدخل التناص ومعه المتلقي في حقل التأويلية التي ستستخدم فيها حتماً معيارية من نوع ما وسيرى المتلقي نفسه يميل مع هذا النص ويتفاعل معه ويختار له بعداً تأويليا من بين العديد من الأبعاد الأخرى وهذا يتم وسط مجموعة من القراءات التي لابدّ أن ينزاح المتلقي مع واحدة منها ويراها هي التي تعلي من شأن شعرية النص وتطرح بصورة حتمية مسألة قيمة العمل.) [16]

(وهذا بالطبع يحتاج إلى قارئ مسلح بوعي نقدي عالٍ قادر على تحليل مفردات النص، وهذا صنف من التحليل يعد فاتحة لعملية النقد أو متزامنا معها وهو يقود إلى عملية تأويل النص واستخلاص المواقف الجمالية والإبداعية فيه، ولابدّ لهذا التأويل أن يتناص مع الأركان المؤسسة لثقافة الناقد الذاتية ورؤاه الفردية المرجعية.) [17]

(فالتناص كغيره من المكونات الأخرى للنص يخضع للتفاوت بحسب وعي المنشئ وتفاعل المتلقي، فقد لا يتفاعل المتلقي مع تناصات المنشئ خصوصاً إذا كانت لا تنتمي إلى مجاله الثقافي ولم تكن جزءاً من مرجعيته المعرفية وهذا ما واجهه الشعر العربي الحديث بدرجات متفاوتةٍ مما يجعل المتلقي يشعر بالغربة أمام النص وباستحالة فهمه لمقاصده.) [18]

ولكن الباحث لا يجب أن ينظر إلى العملية بهذا السوء، فليس كل تعددية للنص تعني تشتت هويته بل على العكس قد تعني إثراءه وتعاظم أفقه الدلالي بما تكسبه تلك التعددية من القراءات الحّمالة لوجوه عديدة.

اقتباس أبي نواس من سورتي الكهف والبقرة: قد يعتقد من يسمع عن شعر أبي نواس دون أن يقرأه أو يتدبر معانيه أنّه أبعد ما يكون عن كلام الله تعالى والمعاني الدّينيّة المستوحاة منه، وذلك لما ناله من سمعة أساءت كثيرا لشخصيته

كمسلم أولا وكشاعر فذّ في المقام الثّاني، وقد فتح عليه هذا الأمر بـــاب التلفيــق إذ يقول النقاد أنّ كثيرا من الشعر المنسوب إليه ظلم في حقّه، إلّا أنّ القارئ لشـــعره لابد أن يلحظ ما يزخر به شعره من اقتباسات قرآنية سواء كان ذلك في مقام اللهو والعبث أم بغرض الزهد وإظهار النّدم والتوبة أم لأغراض أخرى في نفســـه، وإذا كان الاقتباس في باب الزهد عاديا بل مطلوبا لابد منه فالعجيب في أمر هذا الشاعر توظيفه للألفاظ والمعاني القرآنية بعيدا عن إطارها الديني وتوظيفهـــا فـــي اتجـــاه معاكس تماما تبدو فيه نبرة السخرية والاستهزاء أحيانا لتزكية نزوعه إلى الشـــرب واللهو والعبث وإشباع نزواته الخبيثة، وليس من باب الصدفة أن نجد ذلك في شعر أبي نواس المتأثر بابن الحباب أيّما تأثير، إذ نجد أسلوب توظيف المعاني والطقوس الدينية في مقام الشرب واللّهوعن أستاذه والبة بن الحباب حيث قال فـــي وصـــف إبريق الخمر موظفا معنى الصلاة:[19]

إبريقُنـــــــــا مُصَـــــــــلٍّ يضـــــــحك فـــــــي صَـــــــلاتِه
يَكُـــــــبُّ ثـــــــم يُقعـــــــي كـــــــالظّبي فـــــــي فَلاتِـــــــه
يَمُـــــــجُّ كـــــــلَّ شـــــــيءٍ يَمُـــــــرُّ فـــــــي لَهاتِـــــــه

وقد أخذ أبونواس عن الأبيات السابقة قائلا:[20]

فـــي أبـــاريق سُـــجّدٍ كبنـــات ال مـــاء أَقْعَـــيْن مـــن حـــذار الصّـــقورِ

ولم يكن تشبّه أبي نواس بابن الحباب مقتصرا على نظم الشعر فحسب، بل جعل منه قدوة له في سلوكاته وفساد أخلاقه ونمط حياته عامة.

وكانت تشرّبات الشاعر من النصوص الدينية في أغلبها منصهرة، فلـــم يظهـــر منها إلا إيماءات بسيطة وإشارات، وقد تجلى هذا النمط في عدّة مواضع من شعره.

ولعل أبا نواس اختار استيحاء النص القرآني بالذات ليعمق وصف حاله ويجعل المتلقي متعاطفا معه يشاركه مصابه، ولا شك أن إعجاز القرآن واضح في ذهـــن أبي نواس، ويبدو أن هذا هوما دفعه للتناص مع الآيات القرآنيـــة، وقـــد اســـتطاع

أبونواس بعبقريته الفذة أن يتشرب معانيها بطريقة ذكية وبارعة.

فنجده يكشف عن فاعلية الخمر من خلال الإشارات القرآنية التي يوظفها في شعره، حين يقول:[21]

قام الغلام بها في الليل يمزجها كالبدر ضوء سناه للدجى حال

تكاد تخطف أبصارا إذا مزجت بالماء واجتلت في لونها الجالي

وقد تمكن أبونواس من خلال البيتين السابقين من إظهار تقديسه للخمر وتعظيم شأنها من جهة، والكشف عن فاعليتها في نفس الناظر فهي تخطف البصر لشدة صفائها وعدم كدرها، والملاحظ أن تحقيق أبي نواس لهذه المعاني كان عن طريق تأثره بالآية القرآنية:

﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (20) ﴾[22] ونستطيع أن نلمس هذا التأثر بشكل جلي من خلال عبارة " تكاد تخطف أبصارا " التي اعتمدها لوصف شدة لمعان الخمر حال مزجها بقدرتها على خطف الأبصار كما هو الحال في شدة لمعان البرق. متأثرا في ذلك بشدة لمعان البرق في الآية.

ويتعدى الشاعر في اقتباسه مضمون الآية الواحدة في بعض أشعاره فيتشرب معاني آيتين أو أكثر أحيانا ويعمل على توظيفها بأشكال مختلفة، فينقلها نقلا حرفيا مباشرا تارة أو يستحضرها استحضارا إيحائيا دلاليا في أحيان أخرى، ومن أمثلة ذلك في شعره قوله:

لفتية قد بكروا بأكلب قد أدّبوها أحسن التأدّب

في تداخل دلالي مع مضمون الآيتين من سورة الكهف ﴿ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا (10) ﴾[23] ﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ

بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا (18) ﴾[24] مع استحضار إيحائي خفي لقوله تعالى ﴿ وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا (19)﴾[25]

وجاء توظيف أبي نواس لقصة أصحاب الكهف في معرض امتداح أصحابه المشاركين له لحظات السكر والنشوة، الذين خصص لهم جزءا هاما من أبياته، فقد كثر توظيفه للفظة الفتية في خمرياته. يقدم أبونواس «الفتية» ويشير إلى مجموعة من الصفات التي يتسمون بها وفي تصرفاتهم. ففي سورة الكهف يُعدّ الفتية من المؤمنين وفي هذا تناقض بين واقع «فتية أبي نواس» الذين يرتكبون المعاصي وفتية أهل الكهف، وهذا ما يُظهر أسلوباً يتّبعه الشاعر باستمرار حين يُقلّب الأوضاع عمداً كما أشرنا سابقا.

وفي سياق آخر بعيدًا عن رفقة السوء والشرب عمد الشّاعر إلى عدّة اقتباسات اللّفظية في شعره كقوله: [26]

وقلتُ ربّي ذو رحمة وذو غفران: استحضارا لقوله تعالى: ﴿ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا (58)﴾[27] مستحضرا معنى رحمة الله الواسعة في مقام " الزهد ".

إلّا أنّ هذا الاقتباس رغم حرفيّته إلّا أنّه لم يكن اجتراريّا للفظ الآية دون تحوير أو تغيير، بل برزت من خلاله قدرة الشّاعر على التّشرّب والاستفادة من ثقافته الدّينية.

والملاحظ أنّ الاقتباسات السّابقة مأخوذة من سورة الكهف، كما نلاحظ على اقتباس أبي نواس من آياتِ القرآن الحكيم كثافة الاقتباس من سورة البقرة، ولا

يمكن أن يكون هذا من باب الصدفة. فتكرار بعض المعاني يؤكد للقارئ أنه أمام اختيار مؤكد لدى الشاعر. ونبدأ من قوله الشهير في وصف الخمر:[28]

صفراء لا تنزل الأحزان ساحتها إذا مسّها حجر مسّته سرّاء

الذي ارتأيته مُقتبَسًا من قوله تعالى: ﴿ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ (69) ﴾[29]

حيث أنّ وجه الشّبه بين الآية الكريمة والنص الشعري يكمن في اللّون الأصفر البهيج الذي يسرّ ناظره ويحرّك الجماد ببثّ روح السرور فيه، وأبونواس كما سلف الذّكر مولع بكلّ أوصاف الخمر الجذّابة، وها هو يختار لها وصفا قرآنيا راقيا ليمنح خمرته مكانة تضاهي مكانة بقرة بني إسرائيل التي أحيى بها الله الميّت وأظهر على لسانه كلمة الحق.

وينطبق هذا على قوله أيضا:[30]

صفراء تَسْلُبُكَ الهُمومَ إذا بدتْ وتُعِيرُ قلبَك حُلّة السّرّاءِ

ولم يقتصر تناص أبي نواس مع القرآن الكريم على التشرب المعنوي في شكل إيحاءات فقط، بل نجد له عدة اقتباسات حرفية وتداخلات لغوية مباشرة مع عدد من آياتِ القرآن الكريم.

حيث يعترف أبونواس بحرمة شرب الخمر وعظيم وزر شاربها في قوله:[31]

لَحاتِي كي لا أشربَ الرَّاحَ إنّها تُورث وزرًا فادحًا من يذوقها

اقتباسا من آية تحريم الخمر في سورة البقرة: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (219) ﴾[32]

ونلمس في بعض الأحيان شيئا من التناقض في شعر أبي نوّاس، إذ يصرُّ على المعصيةِ والمجون تارةً ويبدي امتعاضهُ تارةً أُخرى. فيذكر في غير ما موضع

عدم رضوخه للعاذلين رغم قوة حجتهم كقوله:[33]

أ عَـــــاذِلتِي اقصُـــــري عـــــن بعـــــضِ لـــــوْمِي
فَراجِـــــــي تَـــــــوْبتِي عنْـــــــدِي يخيـــــــب
تُعيبِـــــــينَ الـــــــذّنُوبَ وأيُّ حـــــــرٍّ
مِـــــن الفتيَـــــانِ لـــــيسَ لـــــهُ ذنـــــوب

ويظهر حسّ التأثر والندم والتوبة في مواضع أخرى –على قلّتها–:[34]

أَعـــــاذِل بِعْـــــتُ الجَهـــــلَ حيـــــث يُبَـــــاعُ
وأَبـــــرَزْتُ رأسِـــــي مـــــا عليـــــهِ قِنـــــاعُ
نهـــــاني أميـــــرُ المـــــؤمنينَ عـــــن الصِّـــــبَا
وأمـــــرُ أميـــــرِ المـــــؤمنينَ مُطـــــاعُ
ولهـــــو لتأنيـــــبِ الإمـــــامِ تركتـــــهُ
وفيـــــه لِـــــلاهٍ منظَـــــر وسَـــــمَاعُ

وقد خَلصتُ إلى أن ذلك يعد من إبداعات أبي نواس، فجمعه بين اللهو والزهد في نفس القصيدة، وكثافة ما تحتوي عليه تلك القصائد من الإيحاءات والإشارات إلى النصوص القرآنية ليس بالأمر الهيّن، ونلمس هذه الظاهرة بشكل ما عند أبي العتاهية أيضا في بعض قصائده (المزج بين اللهو والزهد) إلّا أنّها لم تكن بارزة لديه كما هو الحال عند الحسن.

(ويذكر أنّ أبا نواس ذهب إلى الحجّ وبعد عودته عمد إلى الإلحاح في بعث الرسل والوسطاء على جنان جارية آل عبد الوهاب الثقفي يستعطفونها لتلقاه ويسعد بلقائها، فلما ضاقت برسله ومبعوثيه ضربت له موعدا ولم يكن في نيتها أن تفي له بالوعد ولم تجبه إلى رجائه، فكان يطوف بقصر الثقفيين وينشد:

أطـــوف بقصـــركم فـــي كـــلّ يـــوم كـــأنّ لقصـــركم خلـــق الطـــواف[35]

مشبها بذلك قصر الثّقفيين ببيت الله الحرام الذي لم يجعل الطواف لبناءٍ سواه ومقتبسا من قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ (158)﴾[36]

كما يمكن الاستدلال على تأثر الشاعر الكبير بسورتي البقرة والكهف أيضا بإحدى قصائده، حيث لفت انتباهي إسهاب الشاعر في اعتماد السورتين كمرجعية هامة لأفكاره المبثوثة فيها بالإضافة إلى بضع اقتباسات من سور أخرى، وكانت اقتباساته (ولاسيما من سورة البقرة) بارزة في معظم أبيات القصيدة. ومن هنا وجب التساؤل عن المعاني الجديدة التي أضفاها هذا التناص على القصيدة:[37]

وفِتيَةٍ كَمَصابيحِ الدُجى غُرَرٍ
شُمُّ الأُنوفِ مِنَ الصيدِ المَصاليتِ
صالوا عَلى الدَهرِ بِاللَهو الَّذي وَصَلوا
فَلَيسَ حَبلُهُمُ مِنهُ بِمَبتوتِ
دارَ الزَمانُ بِأَفلاكِ السعودِ لَهُم
وعاجَ يحنو عليهم عاطِفَ الليتِ
نادَمتُهُم قَرقَفَ الإِسفنطِ صافِيَة
مَشمولَةً سُبيَت مِن خَمرِ تِكريتِ
مِنَ اللَواتي خَطَبناها عَلى عَجَلٍ
لَمّا عَجَجنا بِرَبّاتِ الحَوانيتِ
في فَيلَقٍ لِلدُجى كَاليَمِّ مُلتطِمٍ
طامٍ يَحارُ بِهِ مِن هَولِهِ النوتي

إذا بِكـــــــافِرَةٍ شَـــــــمطاءَ قَـــــــد بَـــــــرَزَت
فـــــــــي زَيِّ مُختَشِّـــــــــعٍ لِلّهِ زِمّيـــــــــتِ
تنمـــــي إلـــــى محتـــــد الكفـــــارِ فـــــي نســـــبٍ
أهـــــل الصـــــوامع عبّـــــاد الطواغيـــــت
قالَـــــت مَـــــنِ القَـــــومُ؟ قُلنـــــا مَـــــن عَـــــرَفتِهُمُ
مِـــــن كُـــــلِّ سَـــــمحٍ بِفـــــرطِ الجـــــودِ مَنعـــــوتِ
حَلّـــــوا بِـــــدارِكِ مُجتـــــازينَ فَـــــاِغتَنِمي
بَـــــذلَ الكِـــــرامِ وقـــــولي كَيفَـــــا شـــــيتِ
فَقَـــــد ظَفِـــــرتِ بِصَـــــفو العَـــــيشِ غانِمـــــةً
كَغُـــــنمِ داوودَ مِـــــن أَســـــلابِ جـــــالوتِ
هِـــــيَ الصـــــباحُ يُجلّـــــي اللَيـــــلُ صـــــفوَتَها
إذا ارَتمَـــــتْ بِشِـــــرارٍ كَاليَواقيـــــتِ
رَمْـــــيَ المَلائِكَـــــةِ الرُصّـــــادِ إذ رَجَمَـــــتْ
فـــــي اللَيـــــلِ بِـــــالنَجمِ مُـــــرّادَ العَفاريـــــتِ
فَأَقبَلَـــــت كَضِـــــياءِ الشَـــــمسِ بَازِغَـــــةً
فـــــي الكَـــــأسِ مِـــــن بَـــــينِ دامـــــي الخَصـــــرِ مَنكـــــوتِ
قُلنـــــا لَهـــــا كَـــــم لَهـــــا فـــــي الـــــدَنِّ إذ حُجِبَـــــت
قالَـــــت قَـــــدِ اتّخِـــــذَت مِـــــن عَهـــــدِ طـــــالوتِ
كانَـــــت مُخَبَّـــــأَةً فـــــي الـــــدَنِّ قَـــــد عَنَسَـــــت
فـــــي الأَرضِ مَدفونَـــــةً فـــــي بَطـــــنِ تـــــابوتِ

فَقَـــــد أتيـــــتُم بِهـــــا مِـــــن كُنـــــهِ مَعـــــدِنِها

فَحـــــاذِروا أَخـــــذَها فـــــي الكَـــــأسِ بِـــــالقوتِ

يُـــــديرُها قَمَـــــرٌ فـــــي طَرفِـــــهِ حَـــــوَرٌ

كَأَنَّمـــــا اشـــــتُقَّ مِنـــــهُ سِـــــحرُ هـــــاروتِ

حَتّـــــى إِذا فلـــــكُ الأَوتـــــارِ دارَ بِنـــــا

مَـــــعَ الطبـــــولِ ظَلِلْنـــــا كَالمســـــابيتِ

لَـــــم يَثْننـــــي اللَهـــــو عَـــــن غِشـــــيانِ مَوردِهـــــا

ولَـــــم أَكُـــــن عَـــــن دَواعيهـــــا بِصِـــــمّيتِ

حَتّـــــى إِذا الشَـــــيبُ فاجـــــأني بِطَلعَتِـــــهِ

أَقـــــبِحْ بِطَلعَـــــةِ شَـــــيبٍ غَيـــــرِ مَبخـــــوتِ

عِنـــــدَ الغَـــــواني إِذا أَبصَـــــرنَ طَلعَتَـــــهُ

آذَنَ بِالصَـــــرمِ مِـــــن وِدٍّ وتَشـــــتيتِ

فَقَـــــد نَـــــدِمتُ عَلـــــى مـــــا كـــــانَ مِـــــن خَطَـــــإ

ومِـــــن إِضـــــاعَةِ مَكتـــــوبِ المَواقيـــــتِ

أَدعـــــوكَ سُـــــبحانَكَ اللَهُـــــمَّ فَـــــاعْفُ كَمـــــا

عَفَـــــوتَ يـــــا ذا العُلـــــى عَـــــن صـــــاحِبِ الحـــــوتِ

حيث تحتوي الأبيات السابقة على أسماء شخصيات مشهورة من البيت الثـامن إلى الحادي والعشرين من أمثال: طالوت وجـالوت وداوود وهـاروت وصـاحب الحوت (نبيّ الله يونس عليه السلام) كما أنها تتضمن كلمة التابوت وإضـافة إلـى ذلك فإنّ جميع هذه الأسماء تحتل مكان القافية وتذكّرنا بأحداث مذكورة في القـرآن وخاصة في سورة البقرة، فكان من الضروري الوقوف برهة لأن اقتباسا كهـذا لا يمكن أن يكون حدث من باب الصدفة ولمجرد الحصول على بـضع قوافٍ بل هو

مقصود. ولذلك يجدر بنا أن نلقي نظرة إلى تسلسل الآيات ودور ذلك التسلسل في بناء المعنى، لنحاول أن نكتشف من خلال تسلسل الآيات نوعية العلاقات القائمة بين النصين والتي تؤكد أن الشاعر قد قصدها للتعبير عن آراء أو مفاهيم أو صور في قصيدته هذه.

فنجد أنّ الآية﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آَمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (257)﴾[38] من سورة البقرة تذكر الطاغوت وصراع النور والظلمات كما يفعل أبونواس وفتيته في موقف سعيهم إلى الخمارة وما تمخّض عن ذلك من أحداث.

ويمتاز الفتية حسب الشاعر بصفة معروفة معتادة في قصائد أخرى له وهي الكرم والسّخاء (البيت9)، وموقفهم من المال يلفت النظر حيث أنهم مستعدون أن يبذلوا في الخمر مبالغ باهظة (البيت10) دون مبالاة «قولي كيفما شيتِ» «بذل الكرام» ويجدر بنا أن نقف عند الأبيات التي يقوم فيها الحوار بينهم وبين الخمارة ويدور فيه الفصال والمساومة لشراء أحسن الخمور. وهذا الوضع مألوف شائع في خمريات أبي نواس غير أنّنا هنا أمام أبيات تشير إلى مساومة حادة ذات علاقة بالآيات المشيرة إلى طالوت الذي أصبح ملكاً على بني إسرائيل بعدما كانوا يبحثون عن ملك لمحاربة أعدائهم. إلا أنهم لم يرضوا به لقلة ماله ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (247) ﴾[39] غير أن الله جعل آية التابوت لإقناع بني إسرائيل بأحقية طالوت في الملك، والإلحاح على المال يسترعي الانتباه ويجرّنا إلى التساؤل حول العلاقة بين جود الفتيان وبذلهم أموالاً طائلة وقلة مال طالوت ؟

ثم يأتي ذكر داوود وجالوت وقصّتهما معروفة في البيت11 من هذه القصيدة:

فقـــــد ظفـــــرت بصَـــــفْو العـــــيش غانمـــــةً

كَغُـــــنْم داوودَ مـــــن أســـــلاب جـــــالوت

أخذًا عن قوله تعالى﴿ فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (251) ﴾[40] وسياق جميع هذه الآيات يرمي إلى الحث على القتال في سبيل الله كما يستنتج من النص القرآني نفسه ومن التفاسير.

أما ذكر الصوامع والطواغيت:

تنمـــــى إلـــــى مَحْتِـــــد الكفّـــــار فـــــي نســـــبٍ

أهـــــلِ الصـــــوامع عُبّـــــادِ الطواغيـــــتِ

فَيُحيلنا على اقتباس معنوي أكثر منه لفظي، فقد وردت مفردة الطاغوت في عدّة آيات من القرآن وكلّها واردة بصيغة المفرد، وفي سورة البقرة بالذات نجد قوله تعالى﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (257)﴾[41] إلّا أنّها وردت بصيغة الجمع في النص الشعري.

وتعني كلمة الطاغوت: ما عُبد من دون الله عزّ وجلّ، وكلّ رأس في الضَّلال طاغوت قيل: الأصنام، كما قيل: الشيطان والكهنة ومردة أهل الكتاب حسب ما ورد في قاموس المعجم الوسيط.

فالخمّارة بصفتها كافرة على حد قول الشاعر تنتمي إلى «عبدة للطواغيت» وهي ملّة اخترعها الشاعر كما اخترع عبارة «أهل الصوامع»

أما موضوع المسخ فالهدف منه إظهار التزمّت والتّمسك بالدين يُخفي على سبيل الاستهتار والسخرية عدم مبالاتهم بالدين أصلاً وقد يكون أيضاً رداً على

خشوع صاحبة الحانة المصطنع «قد برزت في زيّ مختشع لله زمّيتِ» (البيت 7) أمّا طالوت فيظهر مرة أخرى مقترنا بعمر الخمر (البيت 15) وهي في التابوت.

ولا شك أن جميع هذه الاقتباسات مُسَخّرة لأداء معنى متكامل، ففي هذا الصدد يجب ألّا ننسى أن آية الملك طالوت هي التّابوت. ويبدو أن المعنى الذي ورد به في سورة البقرة يسمح للشاعر أن يوازي ويساوي بين التابوت وبين الخمر والسكينة التي تحدثها في نفوس الفتية ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (248) ﴾[42]، وصورة الملائكة التي تحمل التابوت تدعمها صورة الملائكة المذكورة فعلاً في البيت الخامس عشر حيث نجدها على شكل جنود يرجمون العفاريت.

ومن أهم الشخصيات التي لم تُذكر إلا في سورة البقرة هاروت وصاحبه ماروت ﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (102) ﴾[43] وقد اشتهر هاروت بالسحر، فنرى من ذلك كلّه أنّ الفتية نجوم يُهتدى بهم وأنهم مقيمون في السماء الدنيا وهم حماة الوحي بصفتهم نجوماً وكواكب يُرجم بها الشياطين، وأنهم يخوضون معركة النور والظلام ويشاركون في ذلك الخمر التي لا يكادون ينفصلون عنها في الأعمال والصفات كما يدل على ذلك أيضاً تسلسل الآيات في سورة البقرة.

ويجب على دارس القصيدة أن يلاحظ أن الاقتباسات العديدة من النص النموذج (القرآن) تبني صورة مختلفة تماماً عمّا كانت ستكون لولاها. فتطبيق هذه الاقتباسات

على القصيدة ومحاولة فهمها من خلال سياقها في القرآن لا يسمح لنا أن نكتفي بالصورة التي نستخرجها للفتيان عادةً أي صورة مجموعة من الشبان تنتمي إلى الأرستقراطية وتفرض كبرياءها ومالها وتتحدى القوانين الدينية والاجتماعية وإن كانت هذه الملامح صحيحة على كل حال. ولكن إذا اتخذنا الاقتباسات بدقّة أكبر رأينا أن المصابيح ليست مجرد إشارة إلى جمال هؤلاء الشبان بل أنّ النص القرآني يضيف أبعاداً وعمقاً يضع الفتية والخمر على نطاق تاريخي ملحمي بل كوني أسطوري. كل من الصفات والأعمال معظّمة ممجدة فمثلاً بحكم كون الفتيان مصابيح الدجى يصبحون حماة الوحي ويخوضون معركة النور والظلمات سواء كان ذلك ضد العفاريت أم دفاعاً عن الإيمان بالله والتوحيد مع داوود وطالوت ومقامهم السماء الدنيا، ولا يخفى ما في ذلك من مفارقة وسخرية تعوّدنا عليها في أشعار أبي نواس أمّا صفات الألوهية فقد أعطاها الشاعر للخمر في أكثر من قصيدة وهي واضحة أيضاً من خلال النور والمصباح وضياء الشمس، وكذلك من خلال القدرة على الخلق في عملية المزاج الذي ينتج منه مزيد من النور ومن الدرر واليواقيت والخمر أيضاً تخوض معركة النور والظلمات ولا يخفى تأليهها فهي والفتيان يملكون قدرة الأمر والنهي للدهر، أمّا هي فلأنها أزلية مثله وهم لأنهم يُخضعون الدهر.

أمّا خاتمة القصيدة التي تظهر ندامة الرّاوي وتوبته وتشير إلى «صاحب الحوت» تَدْعَم وتهدم في آن واحد تأليه الخمر ورفع الفتيان إلى قمم غير إنسانية خارقة للعادة. فقصة يونس عليه السلام تدل على أنه اعتقد أن الله لا يقدر عليه وقد ذكر عنه ذلك في بعض الآيات القرآنية ﴿ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (87) ﴾[44] فكأن الشاعر يدعو القارئ إلى التأمل في كبرياء الإنسان ويوحي أنه اكتشف قدرة الله وندم على ما فات مما جعله يتوب ويبدو أنّه متأكّد من عفو الله وصفحه عنه كما صفح عن النبي يونس استنادا لتتمة الآية ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي

الْمُؤْمِنِينَ (88)﴾[45] فقد قصد الشاعر بذلك قلب الخمرية إلى زهدية من خلال خاتمة زهدية. وليس ذلك غريبا عن أبي نواس، فقد سبقت الإشارة إلى أنّ مزجه بين هذين الغرضين الشعريين يعد إبداعا منه (من النّاحية الفنّية لا الدّينية والأخلاقية).

وآخر ما يتعلق بهذا الاقتباس الطويل والغني من سورة البقرة هو حدث النهر كامتحان لجنود طالوت بشرب الماء أو عدم شربه وتأويله في سياق القصيدة مع الإشارة إلى طريقة الشرب التي تحددها الآية للمقاتل في سبيل الله، أي مَنْ شرب ماء النهر فاغترفه بيده غرفة ولم يزد عليها. حيث يبدو أنه من الصعب أن نضرب صفحاً عن هذه الآية وتفسيرها في نص يدور حول الشرب حتى وإن كان شربا للخمر! ولا يخفى أنّ آداب الشرب قد لفتت أنظار أبي نواس في أكثر من قصيدة. وهذا في رأيي يدعم الافتراض القائم على أنّ أبا نواس يقصد باقتباس هذه الآية هنا آداب الشرب، وقد تساعدنا هذه الإشارة على فهم البيت الذي يليه وهو يحتوي على تحذير في معاملة الخمر:

فقد أتيتم بها من كُنْهِ مَعدنها
فحاذروا أخذها في الكأس بالقوت

ولا يمكن أن ننهي الحديث دون أن نقف وقفة سريعة عند التوبة التي تختتم بها قصيدة أبي نواس. فهي تُفهَم بشكل منطقي في الرؤية الإسلامية وإن كان فيها شيء من المفاجأة في خاتمة الخمرية التي تنفي ماضي الشاعر:

على ما كان من خطأ
ومن إضاعة مكتوب المواقيت

غير أن لا شيء في القصيدة يدل على أن الشاعر يقصد الدفاع عن الأخطاء وإن لم تكن هذه الفكرة بعيدة عن معتقداته حسبما نجدها في فلسفة الشاعر ورؤيته العامة للحياة. وفي ما يلي جدول يلخص مجموع الاقتباسات التي تضمنتها القصيدة من سورتي الكهف والبقرة:

رقم البيت في القصيدة	النص الشعري	النص القرآني	السورة / الآية
ب 1	وفتية كمصابيح الدجا غُرَرٍ	نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آَمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى (13)	الكهف 13
ب 8	تنمي إلى محتد الكفارِ في نسبٍ أهل الصوامع عبّاد البطواغيت	لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (256) اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آَمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (257)	البقرة 256-257
ب11	فقد ظفرت بصَفْو العيش غانمةً كَغُنْم داوودَ من أسلاب جالوت	فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآَتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (251)	البقرة 251

ب15	قالت قد اتخذتْ من عهد طالوت	وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (247)	البقرة 247
ب16	كانت مخبأةً في الدَنِّ قد عنّست في الأرض مدفونة في جوف تابوت	وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِن رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (248)	البقرة 248
ب22	كأنما اشتُقّ منه سحرُ هاروت	وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (102)	البقرة 102

بالإضافة إلى اقتباسات من سور أخرى:

رقم البيت في القصيدة	النص الشعري	النص القرآني	السورة / الآية
ب8	تنمي إلى محتد الكفارِ في نسبٍ أهل الصوامع عبّاد الطواغيت	الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (40)	الحج 40
ب13	رَميَ الملائكةِ الرصاد إذ رجمت في الليل بالنجم مُرّاد العفاريت	1-إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ (6) وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ (7) 2-وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا (9)	1-الصافات 7-6 2-الجنّ 9
ب14	فأقبلت كضياء الشمس بازغةً	1-هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ	1-يونس 5 2-الأنعام78

		يَعْلَمُونَ (5) 2-فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (78)	
ب23	ومن إضاعة مكتوب المواقيت	فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا (103)	النساء 103
ب24	أدعوكَ سُبحانَكَ اللّهُمَّ فاعْفُ كما عَفَوتَ يا ذا العُلى عَن صاحِبِ الحوتِ	وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ (77) وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ (78)	الأنبياء 87-88

ويظهر من خلال هذا الجدول أن الاقتباس قد مسّ جلّ أبيات القصيدة، بل امتدّ تأثيره إلى بقية الأبيات التي لم يكن صريحا واضحا فيها.

خاتمة: تظهر من خلال هذه الدراسة وتحليل مواضع اقتباس أبي نواس من سورتي البقرة والكهف اقتباسا حرفيا أم إيحائيا على حد سواء القدرة الفائقة على تشرب المعاني من مصادر مختلفة، مما ينمّ عن تشبعه بثقافة دينية قرآنية واسعة وما عرف عنه من تأثر بالمذهب المعتزلي، رغم عدم ظهور أثر ذلك على سلوكه

واعتقاده إلّا في آخر أيام حياته حين انصرف إلى الزهد وندم أشد النّدم على ما فات من شباب وطيش.

إلا أنّ المفارقة العجيبة تبدوفي كثرة اقتباس الشاعر من القرآن والحديث في باب خمرياته التي تمثل الجزء الأكبر من ديوانه، حيث أن هذا الغرض احتل مساحة هائلة من ديوانه (ثلث الديوان) رغم بعده التام في سلوكه عن التدين، لتبدو من خلال هذه الاقتباسات سعة ثقافته الإسلامية وعمق إلمامه بها، وقد وصل به الحد إلى المبالغة في توظيفها أحيانا.

وإذا كان الاقتباس ذا طبيعة دينية فبالإمكان الحكم على أبي نواس بالتجديد في توظيفه للألفاظ والمعاني القرآنية من خلال الخروج بها عن إطارها الديني، بل وظفها في اتجاه معاكس تماما تبدو فيه نبرة السخرية والاستهزاء أحيانا لتزكية نزوعه إلى الشرب واللهو والعبث وإشباع نزواته الخبيثة، إلا أنه أجاد توظيفها من الناحية الفنية بغض النظر عن تحويره للمعاني، وهذا ما يحسب له من الناحية الفنية الإبداعية رغم أننا لا يمكن أن نتقبل ذلك من الناحية الدينية أولا كونه شاعرا مسلما، ومن الناحية العقلية والأخلاقية ثانيا كونها معان مستوحاة من كتاب الله المقدس وجب على الشاعر التأدب في التجرّئ عليها ووضعها في ما يناسب مقامها، وهذا ما فعله في قصائد الزهد التي تحتل جزءا يسيرا من ديوانه، فلم تخل هي الأخرى من الاقتباس الديني الفعال الذي يظهر ندمه الشديد على جرأته تلك مما يعكس مقدار اللهو والفجور الذي كان غارقا فيه، فكان توظيفها قويا مؤثرا برزت من خلاله عاطفته الصادقة وتنازله عن فلسفته السابقة ونظرته إلى المعصية بل إلى الحياة بشكل عام إلّا أنه في حكم المؤكد أنّه قد سبق إلى هذه المعاني من قبل شعراء آخرين من أمثال أبي العتاهية.

الهوامش:

[1]- ينظر: إلهام أبوغزالة وعلي خليل حمد، مدخل إلى علم لغة النص، ص35.

[2]ـ الفكيكي عبد الهادي، الاقتباس من القرآن الكريم في الشعر، دار معد دمشق – سوريا، 1996م ص7.

[3]- الفكيكي عبد الهادي، الاقتباس من القرآن الكريم في الشعر، ص11.

[4]ـ سورة طه، الآية 10.

[5]- الفكيكي عبد الهادي، الاقتباس من القرآن الكريم في الشعر، ص11.

[6]- الفراهيدي،1980 ، ج5 ، ص86 .

[7]ـ رواه أبوداوود في سننه والنسائي، الحديث 793.

[8]ـ سورة الحديد، الآية 13.

[9]ـ القزويني جلال الدين، الإيضاح في علوم البلاغة، دار إحياء العلوم-بيروت، ط4 ، 1998م، ص 381. والجرجاني علي بن محمد، التعريفات، تح :ابراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي-بيروت، 1405هـ، ط1 ، ص49 .

[10]ـ الأرزي تقي الدين أبوبكر علي بن عبد الله الحموي، خزانة الأدب، تح :عصام شعيتو، دار ومكتبة الهلال-بيروت، 1987م، ج2 ، ص455 .

[11]ـ القلقشندي أحمد بن علي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، تح: يوسف علي الطويل، دار الفكر-دمشق،1987 م، ج1، ص237 .

[12]ـ الموصلي، أبوالفتح ضياء الدين نصر الله بن محمد بن عبد الكريم، المثل السائر، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية- بيروت، 1995م، ج1، ص137 .

[13]ـ الأرزي، خزانة الأدب، ج2 ، ص455 .

[14]ـ الأرزي، خزانة الأدب، ج2 ، ص457.

[15]ـ عبد السلام المسدي، الأسلوبية والأسلوب، الدار العربية، تونس، 1982م، ص282.

[16]- انظر: الشعرية، تودوروف، ص80.

[17]- انظر: المفكرة النقدية، بشرى موسى صالح، ص59-60.

[18]- انظر: لسانيات النص، محمد خطابي، المركز الثقافي العربي، بيروت/الدار البيضاء، ط2 2006م، ص 327-330.

[19]- صلاح فضل، سجود الأباريق، جريدة الاتحاد الإماراتية، 23 يوليو2009.

[20]- ديوان أبي نواس، المقدمة ص (ق).

[21]- ديوان أبي نواس، ص680 .

(22)- البقرة، آية20 .
(23)- سورة الكهف، الآية 10.
(24)- سورة الكهف، الآية 18.
(25)- سورة الكهف، الآية 19.
(26)- ديوان أبي نواس، ص 543.
(27)- سورة الكهف، الآية 58.
(28)- ديوان أبي نواس، ص 6.
(29)- سورة البقرة، من الآية 69.
(30)- ديوان أبي نواس، ص702.
(31)- ديوان أبي نواس، ص9.
(32)- سورة البقرة، الآية 219.
(33)- ديوان أبي نواس، ص 12.
(34)- ديوان أبي نواس، ص 12.
(35)- ديوان أبي نواس، ص 230.
(36)- سورة البقرة، الآية 158.
(37)- ديوان أبي نواس، ص 38-39-40.
(38)- سورة البقرة، من الآية 257.
(39)- سورة البقرة، الآية 247.
(40)- سورة البقرة، الآية 251.
(41)- سورة البقرة، من الآية 257.
(42)- سورة البقرة، الآية 248.
(43)- سورة البقرة، ص 102.
(44)- سورة الأنبياء، الآية 87.
(45)- سورة الأنبياء، الآية 88.